براديغم بلاغة الجمهور: نحو تأسيس توجه جديد للبلاغة العربية

Pradegem Rhetoric of the Audience: Towards establishing a new trend for Arabic rhetoric

عصام بن خدا : باحث بسلك الدكتوراه.

جامعة الحسن الثاني، المغرب.

كلية المحمدية، مخبر البحث: السيميائيات وبلاغة النصوص.

البريد الالكتروني:issambenkhadda425@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2020/04/28	2020/07/21	2020/08/10

***Summary* :**

This study aims to restore consideration to the addressee who was interested in the audience's rhetoric, which is the new rhetorical project proposed by Imad Abdel Latif. Within the framework of the Arab contributions that attempt to draw new borders for the Arabic rhetoric, which focused from its beginnings on providing the speaker with all the means to influence the addressee.

Key words : The audienc's rhetoric – Arabic rhetoric – the speaker – Adressee- counter rhetoric.

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى رد الاعتبار إلى المخاطب الذي اهتمت به بلاغة الجمهور، وهو المشروع البلاغي الجديد الذي اقترحه عماد عبد اللطيف، في إطار الإسهامات العربية التي تحاول رسم حدود جديدة للبلاغة العربية التي ركزت منذ بداياتها على مدِّ المتكلم بكل الوسائل للتأثير في المخاطَب، من هذا المنطلق انبثقت بلاغة المخاطب لتدرس سمات الكلام الذي ينتجه المتكلم من أجل إحاطة المخاطَب به، ومن تم أمكنه أن ينتج خطابا مضادا لخطاب المتكلم.

الكلمات المفاتيح : بلاغة الجمهور – البلاغة العربية – المتكلم – المخاطب – البلاغة المضادة.

تقديم:

في إطار مشروعه البلاغي الجديد، اقترح عماد عبد اللطيف تأسيس توجه جديد للبلاغة العربية، يتجاوز مشكلات التوجهات القائمة، و المتمثلة بشكل أساس في عدم اكتراثها للخطابة البلاغية في الحياة اليومية، أو تحوله إلى ممارسة سلطوية تعزز سيطرة المتكلم و هيمنته على المخاطَب[1].

تهتم بلاغة الجمهور أو البلاغة الإنشائية – كما سماها عماد عبد اللطيف – بدراسة الكيفية التي تستخدم بها هذه الخطابات لتحقيق الإقناع و التأثير، و مدى أثر ذلك في تشكيل استجابة المخاطب. و تحاول بلاغة المخاطَب بذلك رسم حدود جديدة للبلاغة العربية، منفتحة على خطابات تم إهمالها من قبيل الخطاب السياسي المعاصر، و الخطاب الإشهاري وغيرهما.

من الآفاق التي تفتحها بلاغة الجمهور أمام الباحثين؛ انفتاحها على علوم شتى، كعلوم الاتصال والاجتماع والأنثروبولوجيا والعلوم السياسية و علم النفس و تحليل الخطاب، مما يجعل المجال خصبا أمام الباحثين لسبر أغوار الخطاب اليومي المتعدد المشارب .

1- تأسيس الإطار النظري لبلاغة الجمهور:

حاول عماد عبد اللطيف إرساء دعائم بلاغة المخاطَب، من خلال وضع إطار مرجعي لها، يكون بمثابة أساس تقوم عليه هذه البلاغة الجديدة التي تفترض أن الخطابات البلاغية الجماهيرية، هي خطابات توظف اللغة لتحقيق أغراض بلاغية؛ تتمثل في إقناع المخاطَب/ الجمهور و التأثير فيه[2] . باعتبار أن هذه الخطابات تعتمد على اللغة التي تتضمن التضليل في أحايين كثيرة. و بالتالي التحكم في معتقداته و نقله من حالات الانفعال إلى حالات الفعل[3]. وتشمل الإرادة الموضوع في كليته؛ لأن أي تجزيئ قد يشكل مقاومة من لدن الذات، فهي في لحظة عمى، فالعمى هو جوهر العشق؛ لأن إدراك عواطفك لا يكفي للتخلص منها[4].

تسعى بلاغة الجمهور إلى رد الاعتبار للمخاطَب، بجعله يدرك قدرة استجابته على تعديل نص المتكلم، وتمكينه من التمييز بين خطاب سلطوي يستهدف السيطرة عليه. و منه أمكننا القول، أن قدرته السالفة الذكر، تنطوي على نقد خطاب المتكلم لينقل ذاته من إمكانية اليقين إلى الاحتمال.

يعد المشروع الذي جاء به عماد عبد اللطيف براديغما جديدا، فرضته التحولات التي عرفتها البلاغة على مدى العصور؛ إذ كانت أداة يستطيع من يتقن استخدامها أن يسيطر على المتلقي، فقد ذكر جورجياس في المحاورة التي خصصها أفلاطون لنقد البلاغة، أن هؤلاء الذين يعرفون كيف يتكلمون، يتمكنون من تسخير الجماهير لخدمتهم، و يمكن بسهولة سلبهم ما يمتلكون . لتنتقل البلاغة إلى طائفة أخرى في حياتنا اليومية تقوم بتسخير الناس، و حتهم على القيام بفعل ما، رسمه المسخِّر سالفا. و يمكن أن نذكرهم على سبيل المثال لا الحصر؛ وهم خبراء الإشهار و المتخصصون في الدعاية الإعلامية و بعض السياسيين...

إن الجديد الذي قدمته البلاغة الإنشائية ، هو اعتبارُها ممارسة تُدخل المخاطَب في اهتماماتها الأولى، كما تعزز بالنقد الذاتي " فهي معرضة دوما لأن تتحول إلى خطاب سلطوي إذا ادعت أنها تمتلك الحقيقة، أو أقامت بإقصاءات وتمييزات خطابية أو مادية "[5] . إضافة إلى اعتبارها نقلة نوعية على مستوى التحليل؛ إذ إن ممارسها لا يدرس المستويات اللغوية و السيميائية، بل ينفتح على السياقات الاجتماعية و النفسية و الاقتصادية التي يُنتَج فيها الخطاب اليومي.

تمتح بلاغة الجمهور (المخاطَب) من حقول معرفية متعددة، منها التحليل النقدي للخطاب، كما تُتمم ما بنته البلاغة العربية القديمة التي اهتمت بالمتكلم؛ حين أمدته بالأدوات اللازمة لتحقيق أغراض الكلام، بينما حاولت البلاغة الإنشائية[6] رَدَّ الاعتبار للمخاطَب في إطار ما أَطلق عليه عماد عبد اللطيف البلاغة المضادة.

2- المشروع البلاغي الجديد :

ميز عماد عبد اللطيف – في إطار مشروعه البلاغي الجديد – بين ثلاث بلاغات رئيسة؛ الأولى : البلاغة القرآنية : مادتها القرآن الكريم، و موضوعها الأبعاد البلاغية للقرآن الكريم، و وظيفتها التعليل لإعجازه البلاغي، والمشاركة في تفسيره. الثانية : البلاغة الأدبية، ووظيفتها استخلاص الخصائص الجمالية للنصوص الأدبية وتحليلها. الثالثة : البلاغة الإنشائية : مادتها اللغة المستخدمة في الحياة اليومية لتحقيق الإقناع أو التأثير، وموضوعها إنتاج الكلام البليغ ، ووظيفتها وضع معايير للكلام البليغ ووضع إرشادات تمكن من إنتاجه.

أ- بلاغة القرآن:

أشار الباحث عماد عبد اللطيف ضمن تقسيمه البلاغي الجديد إلى بلاغة القرآن بقوله : " اِرتبط البحث في بلاغة القرآن بظروف مجتمعية خاصة، و كان على دارسيها أن يعالجوا مشكلين أساسين : الأول : لماذا جاء النص القرآني على النحو الذي جاء عليه ؟ و ما سر إعجازه البلاغي ؟، وهو بحث في ماهية الإعجاز ومظاهره. و الثاني : كيف يمكن أن تكون

البلاغة أداة مساعدة في فهم مقصود المتكلم (الذات الإلهية)؟، أو في تدعيم تفسير تأويل معين، وهو بحث في إنتاج المعنى"[7].

كما يؤكد أن مع إغلاق باب الاجتهاد، لم يعد ثمة تحديات يواجهها دارس البلاغة القرآنية، وعلى كثرة التأليف في البلاغة القرآنية، فإنه يمكن القول إن المؤلفات العربية الحديثة في معظمها مؤلفات استعادية، غايتها اجترار أقوال القدماء وتقديمها بوصفها فصل الخطاب. وقد اعتبرُها كتابات في الشروح و الحواشي والتلخيصات والتعليقات والتعقيبات التي انتشرت في القرون السابقة، على ما يعرف بالعصر الحديث. وهو ما يعني معظم دراسات البلاغة القرآنية الحديثة والمعاصرة تنتمي إلى تاريخ علم البلاغة وليس إلى علم البلاغة"[8].

ب- البلاغة الأدبية:

حاول الباحث عماد عبد اللطيف في معرض حديثه عن البلاغة الأدبية، أن يبين أن المؤسسات الأكاديمية المدنية قد اهتمت بدرجة كبيرة بالبلاغة الأدبية. وعلى مدار قرن من الزمان، تراكمت مئات الكتب و المقالات والرسائل الجامعية التي تعنى بالبلاغتين (البلاغة القرآنية و الأدبية)[9] ، مما جعل هذه المؤسسات تخلص للوافد الغربي الذي دفع دارسي البلاغة الأدبية إلى إلحاقها بفرع من فروع الدراسات وهو الأسلوبية .

وقد عدَّ البحوث و الرسائل التي قدمت في هذا الإطار قوائم منفصلة بالظواهر البلاغية، في نص ما تحت عنوان "دراسة الأسلوبية"، معتبرا الوافد الجديد " الأسلوبية" فرصة ذهبية، أتيحت لاكتساب أرض جديدة في بيئات محافظة، وقد حذَّر من خطورة الممارسات السابقة، من تأجيل الاعتراف بفقدان البلاغة الأدبية لموضوعها. لصالح علوم أخرى قد تكون الأسلوبية من بينها.

ج- البلاغة الإنشائية:

ينحصر اهتمامها في المتكلم و كلامه، "فهي تهتم بدراسة طبيعة القدرة التي تمكنه من إنتاج الكلام البليغ، وتعنى بتطوير هذه القدرة، و تدرس سمات الكلام الذي ينتجه ووظائفه و آثاره. و يمكن القول بناء على ما سبق أن البلاغة الإنشائية تقدم نفسها بوصفها أداة لتحقيق أغراض المتكلم، هذه الأغراض تتمثل غالبا في التأثير في المخاطب أو إقناعه"[10].

نتبين من خلال ما سبق أن الذات الإنسانية ليست ذاتا حرة، ولا تستطيع أن تحرر نفسها من قيود التعلق، ولكي تكون حرة يجب أن تحرر نفسها من الضرورات اللاواعية[11].

كما حصر عماد عبد اللطيف ممارسات البلاغة الإنشائية فيما يأتي:

1- تقديم مجموعة من الإرشادات و التوصيات للمتكلم، تساعده في اكتساب و تدعيم المهارة أو الموهبة البلاغية، أي القدرة على إنتاج الكلام البليغ؛

2- تحديد و تعريف سمات الكلام البليغ، وكيفيات تشكله ووظائفه و آثاره التي يحتمل أن ينتجها، و يدخل في ذلك دراسات مكونات الكلام البليغ (الظواهر البلاغية: المحسنات اللفظية ، المجاز...)، وقد اصطلح عماد عبد اللطيف على هذه الممارسة ب(تنظيرات في ماهية البلاغة: المكونات، الوظائف و الآثار)؛

3- تحليل نص بلاغي من خلال عرض مكوناته و كيفية تشكله، استنادا إلى خصائصه اللغوية، وقد اصطلح على هذه الممارسة ب " نقد النص البلاغي" .

كما خلص من خلال دراسته للبلاغة الإنشائية إلى:

أ- بعض ممارسات البلاغة الإنشائية أداةٌ تدعم سلطوية المتكلم؛ و تمكنه من السيطرة و الهيمنة على المخاطب؛

ب- البلاغة الإنشائية في كثير من ممارساتها، تمثل معرفة سلطوية تستبعد المخاطب من أن يكون مستهلكا لخطابها؛

ج- إن بعض معايير تقويم الأداة في البلاغة الإنشائية، يرتبط بدرجة كبيرة بأغراض المتكلم؛ إذ إن معيار نجاحها، هي قدرتها على إمداد المتكلم بالأدوات اللازمة لتحقيق أغراضه من الكلام؛

د- إن بعض اهتمام علم البلاغة بدراسة العناصر المكونة للموقف البلاغي، يستهدف – غالبا – إحكام سيطرة المتكلم بالأدوات اللازمة لتحقيق أغراضه من الكلام؛

هـ- إن المخاطب الضمني و النصي و المثالي الذي تتوجه إليه البلاغة الإنشائية، و يقوم باستهلاكها هو المتكلم أو البلاغي المعني بخطاب المتكلم[12].

إن البلاغة الإنشائية من وجهة نظر عماد عبد اللطيف معنية بالمخاطب؛ بوصفه الغرض الذي تستهدف السيطرة عليه. لكنها بوصفها ممارسة علمية لا تقوم بخدمة المخاطب، بل تهدف أولا و أخيرا إلى خدمة المتكلم الذي يرغب في التأثير في المخاطب و التغلب عليه.

ورغم أن المتكلم "ملغى"، فهو المحرك الأساس لهذه الممارسة العلمية، وهو المستهلك الوحيد لها. و المخاطب ليس إلا هدفا، يشحذ له المتكلم كلامه، من أجل تسخيره و السيطرة عليه.

3- البلاغة الإنشائية أداة شحذ:

عَدَّ عماد عبد اللطيف البلاغة الإنشائية أداة شحذ، و أن الضحية في هذا السياق هي مناط الاهتمام، وقد خصصت البلاغة الإنشائية قدرا من اهتمامها لتوفير المعرفة التي تخول للمتكلم التأثير في المخاطب عن طريق معرفة أحواله.

وقد عُدَّت البلاغة العربية القديمة في هذا الإطار منحازة إلى طرفها الثاني (المخاطب)، على حساب طرفها الأول (المتكلم).وقد ارتبط ظهور هذا الاتهام بانبثاق مشاريع، و دعوات تطوير البلاغة العربية في الربع الثاني من القرن العشرين. و يُعدُّ الخولي أحد الذين قدموا دلائل على التواء منهج الأقدمين من خلال " ضبطهم القول ، وقياس مقاديره بقياس أحوال المخاطب وحده، مع أن إشارتهم في غير موضع لأحوال المتكلم، كانت خليقة بأن تدخل عندهم في التقدير"[13].

كما يذهب جابر عصفور إلى" اقتران البلاغة بالكلام من حيث قدرته على إيقاع التأثير بالمخاطب، فالمتكلم ملغى لحساب المستمع المتلقي، والكلام يتم التركيز عليه من حيث الأثر الذي يحدثه في هذا المتلقي"[14].

من هذا المنطلق بيّنَ عماد عبد اللطيف أن البلاغة العربية الانشائية معنية بالمخاطب؛ بوصفه الغرض الذي تستهدف السيطرة عليه. وكونها ممارسة علمية، فهي لا تقوم بخدمة المخاطب، بينما تهدف أولا و أخيرا إلى خدمة المتكلم الذي يرغب في التأثير في المخاطب أو التغلب عليه .

وعلى ذلك فإن المتكلم الملغى هو المحرك الأساس لهذه الممارسة العلمية، و هو المستهلك الوحيد لها. والمخاطب "الحاضر" ليس إلا هدفا يشحذ له المتكلم كلامه. و البلاغة الإنشائية لا تعدو وفق هذا المنجز إلا أن تكون أداة شحذ.

وقد توصل عماد عبد اللطيف من خلال دراسته لمسار البلاغة الإنشائية القديمة إلى نتيجة مؤداها:

- إن البلاغة الإنشائية معنية بالمتكلم في معظم أنشطتها، إذ يمكن أن نطلق عليها "بلاغة المتكلم"[15].

غير أنه أشار إلى أنه ثمة استثناء، مثله مشروع سلامة موسى في الربع الثاني من القرن العشرين، الذي درس فيه أثر البلاغة في تأسيس مجتمع مصري عصري أو تقويضه، وبعض العبارات المتناثرة، في فصل من مؤلف له، عنونه ب "ممارسات الخطاب."

وقد خلص إلى أن البلاغة المصرية ، وربما العربية بتوجهاتها الأدبية و القرآنية و الإنشائية، تفتقر إلى وضوح موضوعها و إلى تحديد وظائفها، وهي في الغالب لا تعي ذاتها جيدا. ولا تحاول استكناه ماضيها و فحص واقعها واستشراف مستقبلها، أو من خلال موضعة نفسها داخل الحقول المعرفية المرتبطة بها، ولا تدرك كونها تحولت تدريجيا من نشاط علمي يمثل ممارسة اجتماعية ضرورية، إلى خطاب أكاديمي منغلق على نفسه و مضطرب.

4- من أجل تأسيس توجه جديد للبلاغة العربية:

إن الأسباب السالفة الذكر جعلت عماد عبد اللطيف يقترح تأسيس توجه جديد للبلاغة العربية يتجاوز مشكلات التوجهات القائمة، و المتمثلة بشكل أساس في عدم اكتراثها بالخطابات البلاغية في الحياة اليومية، أطلق عماد عبد اللطيف على هذا التوجه "بلاغة المتكلم"، مادته "الخطابات البلاغية الجماهيرية"، و موضوعها الكيفية التي تستخدم بها هذه الخطابات اللغةَ

لتحقيق الإقناع و التأثير، و أثر ذلك في تشكيل استجابة المخاطب و إمكانيات تعديلها وتكييفها وصولا إلى تحقيق اتصال حر بمفهوم هابرماس.

تحاول بلاغة المخاطب رسم حدود البلاغة العربية لتنفتح على الخطابات البلاغية اليومية، وهو ما ينتج بدوره ترسيما جديدا لحدود علاقتها مع العلوم الأخرى، و يجعل منها علما بينيا تتلاقى فيه علوم الاتصال و الاجتماع، والعلوم السياسية و الأنثروبولوجيا و علم النفس و تحليل الخطاب...

يمنح هذا المشروع الجديد للمخاطب القدرة على تعديل نص المتكلم، و يمتلك قدرة على التمييز بين خطاب سلطوي يستهدف السيطرة عليه، و خطاب سلطوي يستهدف تحريره، ومن ثم يستطيع تطوير استجاباته لمقاومة الخطاب السلطوي.

فعلى مدار قرون عديدة عدت البلاغة أداة يستطيع من يتقن استخدامها أن يؤثر و يسيطر على الآخرين، وقد بيَّن جورجياس أن أولئك الذين يعرفون كيف يتكلمون و كيف يقنعون الجماهير يتمكنون من تسخير الجماهير لخدمتهم، و يمكن بسهولة سلبهم ما يملكون[16]. و المهمة التي كان يقوم بها الخطيب قديما يقوم بها خبراء الدعاية، والمتحدثون بالإنابة و أخصائيو التضليل الإعلامي. " إن الكثير من التصورات و التقنيات البلاغية التي قدمتها البلاغة (الإنشائية) لا تزال مستخدمة "[17]. لقد كتبت كريستينا شتوك في مؤلفها عن البلاغة السياسية العربية في القرن العشرين أن " من يعتقد بأنه يعلم الأهداف التي من أجلها سلطة اللغة يمكنه أن يخوض تجربة نزع هذه السلطة من اللغة[18] ".

يُعقِّب عماد عبد اللطيف على قول الباحثة ب" مع أن شتوك استخدمت عبارتها في سياق البلاغة السياسية فقط. وأنها استخدمتها للإيحاء بمحدودية مقدرة المخاطب العادي؛ (أي غير المشترك في صنع القرار، و غير العارف بالدوافع والأهداف التي يريدها المتكلم مسبقا) على مقاومة بلاغة المتكلم (وهو ما نقول بنقيضه)، فإن هذه العبارة تعد صحيحة في سياق آخر، هو سياق العلم بالبلاغة؛ إذ يمكن القول إن العارف بطرق استخدام البلاغة بوصفها أداة للسيطرة، هو القادر على إبطال هذه السيطرة و تحويل البلاغة إلى أداة للتحرير[19].

وهو ما يعني أن البلاغة في صورتها و وظيفتها المقترحة، هي امتداد عكسي للبلاغة الإنشائية القديمة من ناحية، وهي المعرفة المؤهلة لأن تقوم بوظيفة مقاومة السيطرة الخطابية، من ناحية ثانية.

أ- بلاغة المخاطب:

عد عماد عبد اللطيف بلاغة المخاطب:

- ممارسة موجهة للمخاطب، وبالتالي فهي تشترك مع خطابات بلاغية جماهيرية في طبيعة مستهلكها، و لكنها تخالفها في أهدافها.
- إنها تنبني على استمرارية النقد الذاتي؛ لأنها معرضة دوما لأن تحول إلى خطاب سلطوي، إذا ادعت أنها تمتلك الحقيقة أو قامت بإقصاءات و تمييزات خطابية أو مادية. و دور النقد الذاتي هو مقاومة تحولها إلى ممارسة سلطوية بذاتها.
- أنها ممارسة نوعية على مستويين:

• **مستوى التحليل** : أي أن ممارس بلاغة المخاطب، لا يدرس الأنظمة اللغوية و السيميوطيقية المكونة للخطابات البلاغية الجماهيرية فحسب، بل السياقات السيكولوجية و الاجتماعية و الاقتصادية التي تنتج وتستهلك فيها هذه الخطابات.

• **مستوى بيداغوجي** : إذ إن بلاغة المخاطب يمكن أن تتحول إلى نشاط، يشترك فيه أشخاص متعددو الاهتمامات و الاختصاصات.

- أنها ممارسة نقدية، فهي تُعنى بالكشف عن التحيزات و الهيمنة التي تمارس الظواهر البلاغية. و بالتالي فهي ممارسة موجهة ضد أشكال السلطة التي تمارسها التمييزات و التحيزات.

ب- اهتمامات بلاغة المخاطب :

لبلاغة المخاطب اهتمامان أساسيان؛ الأول بيداغوجي و الثاني أكاديمي.

• **الاهتمام البيداغوجي** : يعد هذا الاهتمام –حسب عماد عبد اللطيف– امتدادا للتصورات التقليدية للبلاغة الانشائية، بوصفها مهارة إنتاج للكلام البليغ ولعلم البلاغة باعتبارها علما يحدد هذه المهارات، ويمرن على ممارستها. "و قد حددت البلاغة الإنشائية المهارات البلاغية بأنها مهارة المتكلم، وحددت المتكلم البليغ بأنه القادر على الوصول إلى أهدافه، عبر أفضل استخدام للغة. ومن ثم انشغلت بقدرات المتكلم على توظيف اللغة بهدف التحكم في المخاطب"[20].

من هذا المنطلق عدت بلاغة المخاطب ممرِّنة للمخاطب البليغ، من أجل إنتاج استجابات بليغة، أي مقاومة للخطاب السلطوي. وقد اقترح عماد عبد اللطيف أن تقوم البلاغة في بُعدها البيداغوجي ب:

- تدريب المخاطب على التمييز بين الخطاب السطوي و الخطاب غير السلطوي؛
- تطوير قدرة المخاطب على إنتاج استجابات بلاغية للخطاب البلاغي للمتكلم؛
- تقديم لائحة بالآثار التي تتربت عن سيطرة المتكلم على المخاطب؛
- تطوير قدرة المخاطب على إدراك الأهداف التي يسعى المتكلم إلى تحقيقها بواسطة خطابه؛
- التعريف بطرق تحقيق التضليل بواسطة اللغة، و دراسة خطابات فعلية استخدمت اللغة بهدف التضليل، وتطوير استجابات لغوية مضادة،
- تعريف المخاطب باستراتيجيات المتكلم بغية تشكيل صورة للمخاطب النموذجي[21].

أما الاهتمام الثاني فهو:

. **اِهتمام أكاديمي:** موجه للمشتغلين ببلاغة المخاطب ليبحثوا في قضايا معرفية تحتاج إلى مراجعة دورية لأسسها المعرفية، و تطوير مناهجها و مقارباتها. مع اقتراح موضوعات للبحث في إطار بلاغة الجمهور، ومعالجة المشكلات المعرفية التي تواجه ممارسيها.

وقد اقترح عماد عبد اللطيف قائمة للموضوعات التي يمكن أن تدرس في إطار بلاغة المخاطب، وهي كالآتي[22]:

1- الخصائص اللغوية والبلاغية للخطاب (غير) السلطوي.

2- الأغراض التي يسعى الخطاب (غير) السلطوي لتحقيقها، والاستراتيجيات والتقنيات التي يوظفها لتحقيق هذه أغراضه.

3- العلاقة بين الخطاب السلطوي و خطاب السلطة، و كيف يمكن أن تنتج السلطة خطابا غير سلطوي.

4- أثر نوع الخطاب (سياسي، دعائي..)، والسياق الذي ينشأ فيه (الظروف الاجتماعية و الاقتصلدية...) وطبيعة العلاقة بين المتكلم و المخاطب و الوسائل المستخدمة في نقله (تلفزيون، مذياع...).

5- دور المخاطب في عملية التواصل.

6- أنواع المخاطب و الاستجابات التي يمكن أن ينتجها كل نوع، و قدرته على مقاومة الخطاب السلطوي والمهارات التي يحتاجها لذلك.

5- العوامل المساهمة في تشكيل آراء الجماهير:

5-1 التسخير:Manipulation

وظف صاحبا المعجم المعقلن (كريماس و كورتيس) التسخير عند حديثهما عن الخطاطة السردية و أجملاها في أربع مراحل[23]:

أ- التسخير :

يعد مرحلة أولية سابقة عن الفعل، و محددة له من باب الافتراض والتقدير، و هو عملية أساسية لتحريك المتلقي. وينبني على علاقة تراتبية تقوم على تكليف المرسِل (المسخِّر) المرسل إليه (المسخَّر) بمهمة ما، وحفزه بفعل إقناعي. ويلائم التسخير فعل الفعل Faire-faire المراهن على الفعلية Factivité والممارسة.

ب – الأهلية:

إن بحث الذات عن الموضوع يتطلب منها إمكانات قادرة على جعل الفعل أمرا ممكنا. وهكذا تبدو الأهلية شرطا ضروريا لتحقيق إنجاز ما، والانتقال من حالة الافتراض إلى حالة اليقين. " إذا كان العمل هو فعل الكينونة، فإن الأهلية هي ما يوجد أي كل المسبقات والمفترضات التي تجعل العمل ممكنا[24] .

ج- الإنجاز:

يعد الإنجاز الوحدة الأكثر تميزا في التركيب الحكائي، فإذا كانت الذات متوفرة على المؤهلات الضرورية أكثر من غيرها، فإنه بإمكانها أن تستثمر كل ما يدخل في الفعلية والممارسة لصالحها .

د- الجزاء:

يدخل الجزاء في إطار تقويم ما أنجزته الذات من أعمال، فهو يترابط منطقيا بالتسخير؛ تؤطر التسخير بنية تعاقدية متمحورة حول طبيعة العمل المراد إنجازه. ويدخل الجزاء في إطار تقويم ما أنجزته الذات من أعمال.

أشرنا فيما تقدم إلى أهمية التسخير في تغيير معتقدات المتلفظ له، و حفزه و حضه على فعل شيء ما. وهذا لا يعني بأن المتلقي مستسلم، وإنما يتمتع بمؤهلات معرفية وذهنية تجعله يقوِّم ما يتلقاه، ويعاود النظر فيه بإمعان قبل اتخاذ القرار. ويجد نفسه أحيانا مجبرا على الامتثال للفعل التسخيري، الذي يرد مصطحبا بالتسخير الاستهوائي الذي يدعمه بالقوة العاطفية Force émotive، ويسعف على إدراك المبتغى بتوظيف الأساليب ذات الشحنات الانفعالية كالإغراء.

فغالبا ما يرتبط التسخير بطرق الاقناع العاطفي، في العلاقة القائمة بين أولئك الذين يريدون إقناع الجماهير. نحن نصر أن الدعاية "غير عقلانية" إنها تخاطب الأهواء، وبالتالي فهي تركز على التأثير بدلا من الحجج العقلية[25].

5-2 الصور و العبارات :

تتأثر مخيلة الجماهير بالصور بشكل خاص، فهي تبهرها و تشدُّ انتباهها، وإذا لم يكن بالإمكان امتلاك الصور، فبإمكان الإنسان إثارتها في مخيلته، عن طريق الاستخدام الصائب والذكي للعبارات والكلمات المناسبة.

يشير غوستاف لوبون لأهمية هذا الأمر بقوله :" فإذا ما استخدمناها بشكل فني لَبِق؛ فإنها تستطيع عندئذ أن تمتلك القوة السرية التي كان أتباع السحر يعزونها إليها في الماضي. فهي تثير في روح الجماهير العديدة أقوى أنواع الإعصار، ولكنها أيضا تعرف كيف تُهدِّئُها. ويمكننا أن نبني هرما أكثر عُلُوًّا من هرم كيوبس العتيق، بواسطة عظام الضحايا فقط، أقصد ضحايا الجماهير التي هيجتها الكلمات والعبارات"[26] .

تمتلك الكلمات قوتها من الصور التي تعبر عنها، وعادة ما تعد الكلمات التي يصعب تحديد معانيها هي الأكثر قدرة على التأثير والفعل. ويمكن التمثيل على ذلك بالكلمات التالية: إشتراكية، ديموقراطية، مساواة، حرية...، مثل هذه الكلمات تحتاج إلى كُتُب لشرحها وتوضيح معانيها. ومع ذلك فهي تملك قوة سحرية، و انتشارا وسط الجماهير. وكأن بزمامها حل المشكلات وتحتوي على الأمل بتحقيقها.

تجدر الإشارة إلى أن العبارات والكلمات لا تملك القدرة كلها على الإيحاء بالصور، فمنها ما يصبح متجاوزا وغير ذي فعالية، بعدما كانت في الماضي القريب ذات قيمة تأثيرية.

تتغير الصور التي تعبر عنها الكلمات بشكل كبير في عصرنا الحالي، إذ غدا هذا الأخير عصر صورة بامتياز، والكلمات التي أرفقت بها ليست إلا معان متحركة ومؤقتة ومتغيرة من عصر إلى عصر.

يشير غوستاف لوبون في هذا الصدد: " وعندما نريد أن نؤثر في الجمهور بواسطتها، فإنه ينبغي علينا أولا أن نعلم ما هو معناها بالنسبة له في لحظة معينة، وليس معناها بالنسبة للأفراد ذوي تكوين عقلي مختلف، فالكلمات تعيش كالأفكار"[27].

5-3 الأوهام :

منذ فجر البشرية والناس يتعرضون إلى الأوهام ، لقد كانت في القديم أوهاما دينية، ثم تحولت في عصرنا الحالي إلى أوهام اجتماعية واقتصادية ؛ لأن الوهم الاجتماعي يسيطر اليوم على كل أنقاض الماضي المتراكمة، والمستقبل له بدون شك.

يؤكد غوستاف لوبون هذا الأمر بقوله :"فالجماهير لم تكن في حياتها أبدا ظمأى للحقيقة. و أمام الحقائق التي تزعجهم، فإنهم يحوِّلون أنظارهم باتجاه آخر، ويفضلون تأليه الخطأ، إذا ما جذبهم الخطأ. فمن يعرف إيهامهم يصبح سيِّدا لهم، ومن يحاول قَشعَ الأوهام عن أعينهم يصبح ضحيتهم"[28].

5-4 التجربة :

تشكل التجربة المنهجيةَ الوحيدة الفعالة، من أجل بثِّ حقيقة ما في نفوس الجماهير، وتمارس التجارب من عصر إلى عصر، من أجل أن يكون لها بعض التأثير وتنجح في زعزعة خطإ راسخ بقوة .

وقد أثبت التاريخ أن الشعوب استفادت من أخطائها، عبر التجارب التي اكتسبتها من الماضي، سياسيا واجتماعيا، ولربما اقتصاديا؛ لاعتماد هذا الأخير تقنيات و تأثيرات يقترحها المسخِّر؛ لجعل المستهلك يمارس فعلا تأويليا ويختار بالضرورة ما بين صورتين من كفايته (إيجابية في حالة الإغراء، وسلبية في حالة الإثارة)، أو ما بين موضوعين قيميين (إيجابية في حالة الإغراء و سلبية في حالة التخويف).

5-5 العقل :

نتحدث في هذا المقام عن العقل بوصفه عاملا سلبيا، وليس إيجابيا، لهذا السبب فإن محركي الجماهير لا يتوجهون إلى العقل بل إلى العاطفة. يتساءل غوستاف لوبون في هذا الصدد بقوله: "هل ينبغي أن نأسف لأن العقل لا يقود الجماهير ؟"، يجيب عن السؤال قائلا :" لا ريب في أن العقل البشري قد فشل في زَجِّ البشرية على طرق الحضارة بكل تلك القوة والجرأة التي أثارته فيه أوهامه. وبما أن تلك الأوهام هي بنت اللاوعي الذي يقودنا ويحركنا، فربما كانت ضرورية. وكل عرق يحمل في تكوينه العقلي أو الذهني قوانين مصيره، وربما كان يخضع لهذه القوانين بغريزة محتومة حتى في نزواته الأكثر عقلانية ظاهريا"[29].

5-6 التكرار:

يعد التأكيد من بين العوامل المساهمة في الإقناع والتأثير، كما يساهم في إدخال فكرة ما إلى روح الجماهير ، وكلما كان التأكيد خاليا من العقلانية و مخاطبا العاطفة، كان أكثر وقعا في النفس." فرجال الدولة المدعوون للدفاع عن قضية سياسية معينة يعرفون قيمة التوكيد، وكذلك الأمر فيما يخص رجال الصناعة الذين ينشرون عن طريق الإعلان"[30].

غير أن الإعلان لا يكسب تأثيرا فعليا إلا عن طريق التكرار المستمر، وبنفس الكلمات والصياغات، لترسيخ الفكرة وينتهي بها الأمر في الزاويا العميقة للاوعي؛ حيث تصنع كل الدوافع أفعالنا.

فعندما نسمع أن الشوكولاتة (أ) هي الأفضل مثلا، يتبادر إلى أذهاننا أننا سمعنا بذلك كثيرا، وينتهي بنا الأمر إلى حقيقة يقينية. وعندما يكرر في صحيفة أن فلانا وغد و حقير، وأن فلانا آخر نبيل وشريف، ينتهي بنا الأمر إلى الإذعان والتصديق، إذا لم نقرأ صحيفة أخرى ذات رأي مضاد. إن التأكيد والتكرار هما من القوة المؤثرة في الجماهير.

5-7 العدوى:

تمتلك الأفكار والعواطف والانفعالات والعقائد الإيمانية سلطة عدوى بالغة الأثر في نفسية المسخَّر. يمكن ملاحظة هذا الأمر في الحيوانات مثلا، عندما تتجمع على شكل جمهور. فصهيل حصان في إصطبل سرعان ما يعقبه صهيل الأحصنة الأخرى، وأي خوف أو حركة مضطربة تصيب بعض الخراف تنتقل مباشرة إلى بقية القطيع.

" إن الإنسان يشبه الحيوانات فيما يخص ظاهرة التقليد. فالتقليد يشكل حاجة بالنسبة له، ومن هذه الحاجة بالذات يتولد تأثير الموضة (الأزياء) سواء أكان الأمر يتعلق بالآراء أم بالأفكار أم بالتظاهرات الأدبية أم بالأزياء، بكل بساطة، كم هو عدد الذين يستطيعون التخلص من تأثيره ؟ فنحن نستطيع قيادة الجماهير بواسطة النماذج والموديلات وليس بواسطة المحاجات العقلية"[31].

تتبلور أفكار وعقائد الجماهير في التجمعات والملتقيات، لهذا السبب فإن كل فكرة أتيح لها أن تنتشر في مجتمع ما، فإنها تفرض نفسها على الطبقات الاجتماعية.

5-8 سرعة انفعال الجماهير :

يتصرف الناس غالبا تحت تأثير العاطفة، وبالتالي فهو عبد للتحريضات التي يتلقاها، ويمكن للفرد المعزول أن يخضع للمحرضات نفسها كالإنسان المنخرط في جماعة، غير أن عقله يتدخل و يبين له مساوئ الأمور وسلبياتها إلا في بعض الأحيان. إضافة إلى امتلاكه الأهلية والكفاءة للسيطرة على ردود أفعاله، على خلاف الإنسان داخل الجماعة الذي لا يمتلكهما؛ باعتبار تأثير الجماعة فيه.

وتختلف المحرضات التي يتلقاها الانسان بحسب نوعيتها، فلا شيء متعمد أو مدروس عنده، فهو يستطيع أن يعيش كل أنواع العواطف التي قد تتغير من النقيض إلى النقيض بحسب الظرفية التي يعيشها الإنسان، وتحت تأثير المحرض الذي خضع له في اللحظة نفسها. يشير غوستاف لوبون في هذا الصدد:" إن الجماهير تشبه الأوراق التي يلعب بها الإعصار ويبعثرها في كل اتجاه قبل أن تتساقط على الأرض. إن دراسة بعض الجماهير الثورية تقدم لنا بعض الأمثلة عن تغير عواطفها وتنوعها و تقلبها"[32].

5-9 مبدأ اللذة :

لا يكترث المسخَّر للمتانة والقوة، وكثير من الصفات التي يَعِد بها المسخِّر ويشير إليها، إلا في حدودها لما يود الوصول إليه، من وضعيات تهم التسامي والتحكم في الامتلاك والكينونة. فهو يعيش الحلم في الأشياء، وما يمكن أن تحيل إليه من دلالات توسع من دائرة النفعي لديه، يتدخل فيها الجانب الثقافي حينا؛ لأن المسخِّر لا يستهلك منتجات "حافية" أو "عارية" من كل غطاء ثقافي. فهو يشتري منتجا من خلال نمط في الحياة، وأسلوب في العيش، بوصفها مدخلا للخروج من عوالم الذات الضيقة والانخراط في ما هو اجتماعي، والذوبان في ما يطلق عليه " الشخصية الأساس" ؛ أي الأنا الشاملة المندمجة في المشترك الثقافي القيمي بين أفراد المجموعة، في الاستهلاك وفي أساليب العيش.

إن المسخِّر ينتقي الأشياء لكنه يحتفي بها بصورة رمزية، أو بصورة عن "أناه" الهاربة في المظاهر والصور والأحكام الاجتماعية. أو مندفعة في نحو عوالم هيدونية[33] كل شيء فيها: المتعة والصحة والسعادة والرقي والقوة والنقاوة والسرعة، كل ما يعد به المسخِّر، وما تجسده الاستيهامات في حالات التملك و الكينونة.

فالإشهار مثلا لا يبيع منتجات فحسب، وليس مجرد واسطة بين البائع والزبون، إنه ظاهرة اجتماعية في المقام الأول؛ لأن لا شعور المسخَّر سيظل مشدودا إلى وضع اجتماعي، أو نمط حياتي، أو حالة من الاستهواء يوفرها الشراء، وهي حالات تنتقل بالذات إلى حالات انفعالية، فما يوحي به المنتَج ويعد به أشد إغراء من وظيفتها، ذلك " أن الموضوع، من خلال الرموز التي يقترحها هو نمط في الكينونة والظاهر، إنه إثبات لوجود، وإثبات لوضع و كشف عن نمط في الحياة لا يمكن أن يتحقق إلا ضمن وضعية اجتماعية بعينها[34]".

6- طموحات بلاغة المخاطب:

من بين الطموحات التي أشار إليها عماد عبد اللطيف، هي تحقيق أهداف اجتماعية و معرفية:

- تطوير قدرة المخاطب على التمييز بين الخطاب السلطوي الذي يستهدف تضليله، و بين خطاب غير سلطوي يستهدف تحقيق اتصال حر. و ذلك عن طريق معرفة الكيفيات التي يشكل بها الخطاب السلطوي لغته.
- تقويض أوجه العلاقة بين البلاغة و السلطة، والذي تعد البلاغة بمقتضاه أداة فعالة من أدوات التحكم في الجماهير.

اِستنتاجات:

تسعى بلاغة الجمهور أن تنضم إلى الممارسات العلمية التحررية التي تعمل على تخليص البشر من كل ما يعمل على تشويه الفهم و الاتصال. كما حددت ثلاثة اهتمامات معرفية مشتركة بين بني البشر؛ الاهتمام الأول تقني فني، يتمثل في معرفة البيئة المحيطة، و السيطرة عليها و التحكم فيها، و الاهتمام الثاني عملي، يتجلى في قدرة كل منا على فهم الآخرين، و الاشتراك بينهم في مختلف مناشط الحياة، و هو الاهتمام المسؤول عن قيام العلوم التأويلية. أما الاهتمام الثالث، فيهدف إلى تحرير أنفسنا من كل وسائل التشويش على عمليات الفهم والاتصال .

كما تمتح بلاغة الجمهور (المخاطَب) من حقول معرفية متعددة، منها التحليل النقدي للخطاب، كما تُتَمِّمُ ما بنته البلاغة العربية القديمة التي اهتمت بالمتكلم؛ حين أمدته بالأدوات اللازمة لتحقيق أغراض الكلام، بينما حاولت البلاغة الإنشائية رد الاعتبار للمخاطَب في إطار ما أطلق عليه عماد عبد اللطيف البلاغة المضادة.

و كما أشرنا فيما تقدم إلى أهمية التسخير في تغيير معتقدات المتلفظ له، و حفزه و حضه على فعل شيء ما. وهذا لا يعني بأن المتلقي مستسلم، وإنما يتمتع بمؤهلات معرفية وذهنية تجعله يقوِّم ما يتلقاه، ويعاود النظر فيه بإمعان قبل اتخاذ القرار. ويجد نفسه أحيانا مجبرا على الامتثال للفعل التسخيري، الذي يرد مصطحبا بالتسخير الاستهوائي الذي يدعمه بالقوة العاطفية Force émotive ، ويسعف على إدراك المبتغى بتوظيف الأساليب ذات الشحنات الانفعالية كالإغراء.

كما أن تعرف المخاطب على العوامل المساهمة في تشكيل الجماهير التي تمت الإشارة إليها سالفا، من شأنه أن يخلق له مقاومة تجاه أي خطاب في حياته اليومية، وبالتالي تتحقق لديه البلاغة المضادة التي أشار إليها عماد عبد اللطيف ضمن مشروعه البلاغي الجديد.

الهوامش:

[1]عبد اللطيف، عماد، (2005)،بلاغة المخاطب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته، بحث مقدم في ندوة الأدب المقارن، جامعة القاهرة، ص 16

[2] المرجع نفسه، ص 17.

3- كريماس و فونتاني، سيميائيات الأهواء، من حالات النفس إلى حالات الأشياء. ترجمة سعيد بنكراد. دار الكتاب الجديد المتحدة. بيروت. 2010 ، ص13 .

[4] Michel Mayer. Le philosophe et les passions, PUF, 2007, P 185

5- عبد اللطيف، عماد، (2005)،بلاغة المخاطب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته، مرجع سابق، ص11.

[6] قسم عماد عبد اللطيف البلاغة العربية إلى ثلاثة أقسام: أ- البلاغة القرآنية ب- البلاغة الأدبية ج- البلاغة الإنشائية.

[7] بلاغة المخاطب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته، مرجع سابق، ص 11.

[8] المرجع نفسه، ص 11.

[9] المرجع نفسه، ص 11.

[10]المرجع نفسه، ص 11.

[11] Betty Milan, Personne n’est libre seulement parce que qui’il veut, « De vous à moi ». 2020. P 135.

[12] بلاغة المخاطب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته، مرجع سابق، ص 14.

[13] الخولي، أمين، (1930)، من تاريخ البلاغة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995. ص 112.

[14] عصفور، جابر، (1992)، بلاغة المقموعين ، مجلة ألف، العدد 6، ص 66.

[15] عبد اللطيف، عماد، (2005)،بلاغة المخاطب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته، مرجع سابق، ص19

[16]أفلاطون، 1970، محاورة جورجياس، ترجمها عن الفرنسية محمد حسن ظاظا، الهيئة المصرية العامة للتاليف و النشر.

[17] عماد عبد اللطيف، بلاغة المخاطب، مرجع سابق ، ص 19.

[18] المرجع نفسه، ص 19.

[19] المرجع نفسه، ص19.

[20]المرجع نفسه، ص11.

[21] المرجع نفسه 20-21.

[22] المرجع نفسه، ص22.

[23] Greimas (AJ) et Courtés (J), Sémitique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage , op. cit . P 221.

[24] Ibid : P 53.

[25] Philippe Breton, La parole manipulée, la découverte ,2020. P27.

[26] غوستاف لوبون، سيكولوجية الجماهير، ترجمة وتقديم هاشم صالح، دار الساقي، ط1 ،1991. ص112

[27] المرجع نفسه، ص 119.

[28] المرجع نفسه، ص 122.

[29] المرجع نفسه، ص 125.

[30] المرجع نفسه، ص 133.

[31] المرجع نفسه، ص 135.

[32] المرجع نفسه، ص 65.

[33] الهيدونية من الإغريقية "هيدون" التي تعني اللذة، ويتعلق الأمر بنزعة فلسفية تقول إن الغاية من الوجود الإنساني هو الحصول لذة أكبر بمجهود أقل.

[34] بيرنار كاتولا، الاشهار والمجتمع ، ترجمة سعيد بنكراد، ط1، دار الحوار، 2012 ص 13.

المراجع:

أولا : المراجع بالعربية :

1- أفلاطون،1970، محاورة جورجياس، ترجمها عن الفرنسية محمد حسين ظاظا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.

2- بيرنار، كاتولا 2012، الاشهار والمجتمع ، ترجمة سعيد بنكراد، ط1، دار الحوار.

3- كريماس و فونتاني2010، سيميائيات الأهواء، من حالات النفس إلى حالات الأشياء. ترجمة سعيد بنكراد. دار الكتاب الجديد المتحدة. بيروت.

4- عبد اللطيف، عماد، (2005)،بلاغة المخاطب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته، بحث مقدم في ندوة الأدب المقارن، جامعة القاهرة.

5- عصفور، جابر 1992، بلاغة المقموعين، مجلة ألف، عدد 6، 16-49.

6- غوستاف، لوبون 1991، سيكولوجية الجماهير، ترجمة وتقديم هاشم صالح، دار الساقي، ط1.

7- سلامة، موسى 1945، البلاغة العصرية و اللغة العربية، المطبعة العصرية بمصر.

ثانيا : المراجع بالأجنبية:

1- Betty Milan, Personne n'est libre seulement parce que qui'il veut,« De vous à moi ». 2020.

2- Greimas (AJ) et Courtés (J), Sémitique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage , éd Hachette . Paris , 1979.

3 - Michel Mayer. Le philosophe et les passions, PUF, 2007.

4 - Philippe Breton, La parole manipulée, la découverte ,2020.